صالح جودت

ورقة عمل . . . للأدب والفن

obeikandl.com

obeikandl.com

دار حوار بين صحفية شابة متفتحة ، وبين قاصّنا الاجتماعى اللامع نجيب محفوظ

قالت : ماذا تكتب الآن ؟

قال : لا شيء

قالت : ولماذا ؟

قال : لأننى لا أستطيع أن أكتب وأنا مرتاح النفس . وأنا مرتاح النفس بالفعل منذ النصر الذى حققناه فى السادس من أكتوبر . والفنان لا يبدع إلا إذا كان واقعاً تحت تأثير انفعال عنيف ، كالانفعال الذى عانيناه بعد محنة ١٩٦٧

وأحسب أن نجيب محفوظ صادق كل الصدق فى هذا القول . وليس معنى هذا أنه لن يكتب عن حدث السادس من أكتوبر ، ولكن ليس الآن . . . بل بعد حين ، بعد أن تستقر الأحداث وترسو على مرفأ فى نهاية شاطئ المعركة . . كما فعل توفيق الحكيم من قبل ، حين سجل انفعالاته بثورة سنة ١٩١٩ فى رواية « عودة الروح » التى كتبها فى سنة ١٩٣٦ ، أونحو ذلك

ولعلى أروى هذه الحكاية ، لأقول إن الانفعالات القاسية تهزّ شجرة الفنان

لتطرح ثمارها ، أكثر مما تهزه الانفعالات السعيدة

وأعود إلى نجيب محفوظ ، وأضرب المثل بمجموعته القصصية « تحت المظلة » التى لم يفهمها أكثر من قرءوها ، فى حين أعتبرها أنا من أعظم أعماله .

لم يفهمها أكثر من قرءوها ، لان نجيب محفوظ استعان فيها بالرمز المغرق ، إذ كتبها فى عصر أسود – هو عصر النكسة ، وما قبلها مباشرة ، وما بعدها مباشرة – وهو عصر لم يكن الحاكم فيه يسمح لقلم أن يقول ما يريد ، فلم يجد نجيب محفوظ بدًّا من الالتجاء إلى الرمز الذى لا يفهمه الحاكم ، ولا يفهمه المقربون إليه والهامسون فى أذنه ، تماماً كما لم يفهمه أكثر القراء

ولو فطن القارئ الذكى إلى سطر مكتوب بخط دقيق على بعض صفحات قصة « تحت المظلة » يقول إن أحداث هذه القصة قد وقعت بين شهرى كذا وكذا سنة ١٩٦٧ ، لقفز إلى ذهنه لأول وهلة ، وبمجرد وقوع نظره على هذا الرقم المشئوم ، أنه لابد أن يكون وراء هذا الرمز كلام . . وكلام له معناه الكبير

ودعونى أحاول . . لا أن أفك هذا الرمز ، بل أن أقربه ، مجرد تقريب ، إلى ذهن كل قارئ

فالناس الذين وقفوا تحت مظلة الأوتوبيس فى مستهل سنة ١٩٦٧ ، فى انتظار الأوتوبيس الذى لا يأتى أبداً ، هم الشعب . . الشعب الذى ينتظر وسيلة للحركة تنتقل به ولو محطة واحدة إلى الأمام . . والوسيلة لا تلوح فى الأفق أبدًا

والرجل الذى يخرج من حارة ويعبر الميدان ويدخل الحارة المقابلة ، والناس حوله يعدون صارخين « حرامى . . حرامى » . . ثم لا يلبث الرجل أن يخرج من الحـارة ويغنى ، والناس – الذين لقبوه بالحرامى من قبل – يخرجون وراءه ويغنون معه ويصفقون له . . هم أنفسهم الذين قال فيهم شوقى من قبل . . فى رواية مصرع كليوباترا :

انظر الشعب . . ديون كيف يوحـون إليـه
ملأ الجـو هتافـاً بحيـاتىْ قاتليـه

أثـــر البهتـــان فيـــه وانطلى الـــزور عليـه
يالـــه من ببغـــاء عقلـــه في أذنيـــه

والسيارتان اللتان اصطدمتا وسط الميدان ، وراح فى الحادث كثير من الضحايا التى كست دماؤها الأرض بالأرجوان . هما القوتان المتعاديتان اللتان تصارعتا فى ذلك التاريخ . وسقط فى صراعهما من جانبنا عشرون ألف قتيل

والرجل الواقف فى الشرفة المطلة على الميدان ، يلوح لامرأة واقفة فى الشرفة المقابلة ، يسألها أن تهبط للقائه ، وتستجيب له ويتم لقاؤهما فوق البساط الأرجوانى المصنوع من دماء الشهداء . . هذا الرجل ، غفر الله له ، كان يستطيع أن يغير وجه المأساة . . لولا أنه كان مشغولا بالمرأة الواقفة قباله فى الشرفة . .

والشرطى الذى يظهر فى نهاية القصة ، ويطلق الرصاص على الجميع . . الجميع بغير استثناء . . هو التاريخ . . الذى حكم على كل هؤلاء . . . على اللص المغنى . . . وعلى المرأة . . . وعلى عشيقها . . . وحتى على الناس الواقفين فى انتظار الأوتوبيس فى سلبية وجمود . حكم عليهم جميعاً بالموت . . . لعل جيلا جديدا أفضل منهم يقوم من بعدهم ، ويستدعى الأوتوبيس ، ويواصل به مسيرة التقـــدم . . . المسيرة التى تقف الآن عند محطة السادس من أكتوبر . . . وتتأهب لمزيد من السير

* * *

هذا حديث ليس فى السياسة ، ولكنه فى سيد العلوم الإنسانية ، وهو الأدب والعلوم الإنسانية هى المحرك للأدب فى كل زمان ومكان

فلو تأملنا مسرح « أوزبورن » . . . مثلا . . لوجدنا أن خلاصته هى قول أوزبورن : أريد للإنسان أن يشعر . . لا أن يفكر

وإذا كان أوزبورن يعالج مشكلة الفرد ، كأساس للمجتمع ، فإن خادما

آخر من خدام المسرح ، مثل « آردن » . . . يعالج مجموعات الناس ، ويرسم بهم صورة المجتمع الذى يريد أن يعالجه ، فهوحين يرى الفساد فى المدينة ، يركز الفساد فى سرة المدينة – التى هى بلديتها – ويقدم لك النماذج الفاسدة فى مستشار البلدية ، ومحاسب البلدية ، ومهندس البلدية ، وموظفى البلدية

بيد أن الرجلين يلتقيان فى أن فساد الفرد ، سواء بذاته ، أوبأمثاله ، هوسبب الضلال فى المدينة

ولكن شكسبير يلخص الرأيين فى رأى واحد ، فيقول لك إن الملك هو رأس المجتمع ، وصحة الملك الجسدية والنفسية هى التى ترسم حالة المجتمع ، وتقرر مصير المجتمع

وليت القارئ يجتهد فى هذا « التطبيق » . . . كما كان يفعل فى دروس المدرسة الثانوية . . . فيطبق هذه المذاهب جميعاً على قصة « تحت المظلة » ليفكّ رموزها ويعرف فى أى عصر كنا نعيش

* * *

المهم . . . أن الرمزية كانت لغة الأعمال الكبيرة فى ذلك العهد ، لأن الكاتب لم يكن يملك إلا أن يلجأ إليها

وإذا كانت الرمزية لغة من لغات الانغلاق فى عصور الانغلاق ، لم تسد القصة وحدها ، بل سادت الشعر أكثر مما سادت القصة . . والرواية والمسرحية أيضاً . . . فإنها لم تستطع أن تخدم قضايا الشعب لقصورها عن الإفصاح والتوضيح

أما الأعمال الفنية التى تكتب فى ظلال الحرية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تخدم قضايا المجتمع

خذ مثلا رواية « العدالة » للكاتب المسرحى الكبير جولزورذى

فى هذه المسرحية فصل كامل لا نظير له فى أى عمل فى تاريخ المسرح

فصل كامل لرجل متهم فى جريمة ، محكوم عليه بالحبس الانفرادى فى زنزانة .

ويرسم لك المؤلف – طوال هذا الفصل – تأثير الحبس الانفرادى على إنسانية الإنسان . . . الذى ينقلب بين لحظة وأخرى من قرد إلى أسد إلى هر إلى ثعلب إلى أرنب إلى ثعبان إلى . . . إلى أن يرتد إنساناً مسكيناً مغلوباً على أمره فى أشق وأتعس صورة بشرية

هذه المسرحية ، حينما عرضت فى لندن ، ودعى إليها الناس لمشاهدتها ، اجتمع مجلس العموم البريطانى على وجه الاستعجال ، وقرر إلغاء الحبس الانفرادى

هذا هو النوع من الأدب الواضح المفصح الذى يستطيع أن يخدم قضايا المجتمع ، ويحل مشاكله

* * *

جدّ بنا الحديث . . .

فهل جددنا معه ؟

بصراحة ، لقد وقفنا بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ نتساءل : لماذا لم تستطع العشرون سنة الماضية أن تنتج من الأقطاب والأعلام أمثالا لما كانت تنجبه مصر من قبل ؟

إن التماثيل الكبرى فى حياتنا : شوقى وحافظ وعزيز أباظة وأعلام أبولّو فى مجال الشعر . . والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم فى مجال القصة . . . ويوسف وهبى وجورج أبيض ونجيب الريحانى فى مجال المسرح . . . وأم كلثوم وعبد الوهاب فى مجال الغناء . . . وزكريا أحمد ورياض السنباطى والقصبجى فى مجال التلحين . .

كل أولئك من نتاج عهود ما قبل سنة ١٩٥٢

فلماذا توقفت مصر عن العطاء على مدى عشرين سنة ، بعد أن كان عطاؤها بالغ السخاء ؟

الجواب : أن المواهب لا تتفتح فى ظل النظم البوليسية

يقول الكاتب الروسى الكبير سولجينتسين ، الذى طرد من وطنه أخيرًا :

إن الحكومات البوليسية تكره كتاب الدرجة الأولى ، لأنها تعتبر كلا منهم حكومة داخل الحكومة ، ولهذا فإنها تعتمد دائماً على كتاب الدرجة الثالثة

وما يسرى على الأدب ، يسرى على كل صناعة فكرية .

ولهذا كثر كتاب الدرجة الثالثة ، وفنانو الدرجة الثالثة ، على مدى السنوات العشرين الماضية ، فهبط مستوى الأدب ، وهبط مستوى الفنون عامة ، وخفتت أصوات أصحاب الطبقة الأولى ، فمنهم من آثر الصمت ، أو اتجه إلى التراث ، أو لجأ إلى الرمز الذى لا يخدم قضية ولا يحقق هدفاً

وتحولت أجهزة الإعلام ، من صحافة وإذاعة ومسرح وستارة وغيرها ، إلى أبواق لتمجيد الحاكم وإظهار الظلم بمظهر العدل وإلباس الليل ثوب النهار . كل هذا ، والحاكم كلما سمع تمجيداً ، قال كما تقول جهنم : هل من مزيد ؟

وفى غمار هذه الموجة ، انبثق صوت الغضب والسخط والرفض ، وبدأت بواكيره تظهر فى الأدب ، من شعر وقصة ورواية

ولكن عاملين حولا هذا الصوت إلى نقمة جديدة تضاف إلى النقمة القائمة :

الأول ، أن الغضب والسخط والرفض انصبت حتى على الأسس الخيرة الموروثة من العهود الطيبة . فأنكر الغاضبون التراث ، وأنكروا التقاليد ، وأنكروا الأخلاقيات ، وأنكروا بحور الخليل ، وأنكروا مدرسة شوقى ، وأنكروا جهاد سعد زغلول ، وأنكروا مسرح رمسيس . . وأرادوا أن يهدموا كل شىء بدعوى أنهم سيبنون جديداً ، ولكنهم لم يأتوا بجديد يستحق البقاء ، أو يستحق مجرد النظر

والثانى ، أن عناصر الشرّ احتضنتهم حتى استغرقتهم بمختلف الإغراءات ، فسادت دعوات الشعوبية والإلحاد والهرطقة وسقوط القيم الكبيرة فى الحياة

ولو شاء الشيطان أن يستمر هذا التيار لفقدنا البقية القليلة الباقية من الأمل ، التى تخلفت بعد مدلهمة سنة ١٩٦٧

ولكن مشيئة الله كانت فوق مشيئة الشيطان ، فجاءت الثورة على الثورة فى سنة ١٩٧١ ، وبدأت مسيرة التصحيح ، وبدأت معها العودة إلى القيم ، والأوبة إلى الله ، ودعوة العلم والإيمان

ولعل هذا هوما يسميه أستاذنا توفيق الحكيم بعودة الوعى

وقد كثر الحديث عن عودة الوعى . وجلسنا ، توفيق الحكيم وأنا وأصحابنا نتحدث عنها ، ونستعرض الحملة الضارية التى ووجهت بها هذه الرسالة ، هنا فى مصر ، وفى لبنان

وتساءل الغاضبون : أين كان توفيق الحكيم طوال هذه السنوات ؟ أو لم يكن فى طليعة الركب الذى كان يمتدح الحاكم ؟

وقال توفيق الحكيم : وماذا يملك الإنسان أن يصنع فى عصر يصادر فيه الحاكم شجاعة الإنسان ، ويتهدده بالسجن والقيد والتعذيب والإرهاب والموت ؟

وأضاف إلى ذلك قوله : إننا لا ننكر أنه كانت للحاكم إيجابيات تستحق الثناء ، فأثنينا عليها . . . أما سلبياته ، فقد سكتنا عنها لأننا لم نكن نملك – إزاء الشجاعة التى صادرها فى الشعب – إلا الصمت

واختتم حديثه بقوله :

– ولكن الحساب العلمى الصحيح فى حياة كل حاكم ، يكون بعد رحيله . . . فبعد رحيله ، يمسك المحاسب بالقلم ، ويرصد ما له فى باب « له » وما عليه فى باب « منه » . . . ويتأمل نتيجة الميزانية ، ويحكم بها إذا كان رصيده مديناً أم دائناً

هذا هو المنطق الصحيح الذى تأخذ به جميع الشعوب ، والذى تصحح به مسيرة التاريخ

ولقد كان ستالين معبود شعبه فى زمانه

لم يكن عند شعبه – اللادينى – إله إلا هو

ولكنه حوكم بعد موته ، وكشفت أوراقه أنه أساء بأكثر مما أحسن ، وأنه أعدم من أبناء شعبه رقماً يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من الأنفس

هكذا حوكم ستالين . . .

وهكذا صدرت أحكام التاريخ على هانيبال وموسوليني وهتلر ونابليون والسلطان عبد الحميد وسالازار وسائر دكتاتوريى التاريخ . . بعد أن أساءوا إلى شعوبهم بأكثر مما أحسنوا

* * *

وكنا – فى البداية – نتحدث عن الأدب والفن ، ولكن الحديث جنح بنا حتى جمح

فإذا لم يكن هناك بد من العودة إلى حديث الأدب والفن ، فإننى أقول إننا قد بدأنا فجراً جديدًا فى يوم ٦ أكتوبر . . لندخل عصرًا جديدًا أساسه التخطيط

بدأنا نفكر فى التخطيط الحضارى لحياتنا الجديدة حتى سنة ٢٠٠٠

ولكننا فكرنا فى التخطيط للصناعة والتجارة والزراعة والملاحة . . وكل شىء . . . ونسينا أن نخطّط للأدب والفن ، مع أنهما غذاء الروح ، والروح هى التى تمسك بدفّة كل شىء فى المجتمع

ولهذا ، فإننى أطالب الدولة بإصدار ورقة عمل مدارها الأدب والفن ، تطرح على الأدباء والفنانين الراسخين ، وعلى المجالس المتخصصة ، كمجلس الفنون والآداب ، ومجمع اللغة ، وهيئة المسرح والسينما ، ويدور حولها حوار مفتوح وصريح ، تتبلور فيه الأفكار التى يجب أن يقوم على أساسها تخطيطنا للأدب والفن حتى سنة ٢٠٠٠ .